

الدرس البلاغي من نحو الجملة إلى نحو النص

The Rhetorical Lesson from the Sentence to Text

د. زكرياء مخلوفي

جامعة الشاذلي بن جديد-الطارف(الجزائر)

makhloufi-zakaria@hotmail.fr

تاريخ النشر: 2018/09/01

تاريخ القبول: 2018/07/31

تاريخ الإرسال: 2018/07/10

الملخص:

إن واقع تدريس البلاغة كم صرح به منهاج اللغة العربية يعتبرها محسناً لفظياً أو معنوياً في حين تعتبر البلاغة جزءاً لا يتجزأ من القواعد النحوية والصرفية والإيقاعية، وهي إلى جانب تلك القواعد، مكون أساسي للنص. لذلك تحاول هذه الورقة الوقوف على العلاقة بين نشاط البلاغة والمقاربة النصية التي تستند إلى استثمار آليات لسانيات النص، منطلقة من تساؤل جوهري مفاده هل تستجيب البلاغة العربية التي تستند على نحو الجملة إلى المقاربة النصية التي تنبني على نحو النص؟

الكلمات المفتاحية: البلاغة ; النص ; نحو الجملة ; المقاربة النصية ; لسانيات النص.

Abstract :

The teaching of the rhetoric as declared by the Arabic language curriculum is considered as a verbal or moral enhancer, while it is an integral part of grammar, syntax and rhythmic rules. Along these rules, it is an essential component of the text. So, This paper attempts to determine the relationship between rhetoric and textual approach based on the investment of text-based mechanisms, starting from a fundamental question that postulates whether the Arabic rhetoric, which is based on a sentence, keeps up to the textual approach that is based on text?

Key-words: rhetoric, Text, sentence, textual approach; textual linguistics.

Résumé :La leçon rhétorique à propos de la phrase au texte

L'enseignement de la rhétorique telle que déclarée par le programme de langue arabe est considéré comme un renforçateur verbal ou moral, alors qu'il fait partie intégrante de la grammaire, de la syntaxe et des règles rythmiques. Le long de ces règles, c'est un élément essentiel du texte. Ainsi, ce document tente de déterminer la relation entre la rhétorique et l'approche textuelle basée sur l'investissement de mécanismes textuels, à partir d'une question fondamentale qui postule si la rhétorique arabe, qui est basée sur une phrase, maintient jusqu'à l'approche textuelle qui est basée sur le texte?

Mots clé : Rhétorique, texte, phrase, approche textuelle ; linguistique textuelle.

1- مفهوم المقاربة النصية: يمكن بإيجاز استعراض التقديم الذي جاء به مشروع الوثيقة المرافقة للمنهاج، للمقاربة النصية. وذلك بصفتها مقاربة تعليمية تهتم – مثلما يعرض مشروع الوثيقة- بدراسة تتخطى مستوى الجملة إلى مستوى بنية النص ونظامه، ومن ثمّ العناية بظاهرتي الاتساق (cohésion) والانسجام (cohérence) اللتين تجعلان النص غير متوقف على مجموعة متتابعة من الجمل. بل تتعدى ذلك إلى محاولة رصد كل الشروط المساعدة على إنتاج نص محكم البناء متوافق المعنى.¹ هي مجموعة طرائق التعامل مع النص وتحليله بيداغوجيا لأجل أغراض تعليمية²، حيث اعتمدت في المناهج التعليمية في الجزائر كاستراتيجية فعالة وناجحة، وهي تشمل الأدوات والتقنيات والإجراءات المنهجية، والوسائل الإنجازية، باعتبارها أضمن طريقة لأجل إعداد المتعلم وإدماجه داخل نسيج المجتمع، وذلك ببناء كفاءة الإنتاج الكتابي،

وتطويرها ليتجاوز مرحلة السلبية وإرساء علاقة حميمية بين المعلم والمتعلم وبين المتعلم والمعرفة، وتزويد المتعلم بالآليات التي تجعل منه فردا منتجا ومفيدا وقادرا على تكيف بشكل إيجابي مع الظواهر المعقدة.

وهذا لا يأتي إلا من خلال وضعيات دالة تكسب الفرد الثقة بالنفس والتشبع بالروح الوطنية والقيم الأخلاقية، بحيث يكون منتجا وقادرا على التكيف مع الوضعيات المعقدة وغير المتوقعة³. إذن فالمقاربة النصية تتيح للمتعليم إمكانية رصد العناصر المكونة للنص، فهما لمعانيه، ورصدا لمضامينه.

2-المعايير النصية: قدّم دي بوغراندي ودرسيل مجموعة معايير لتماسك النص بوصفه حدث تواصلية يلزم لكونه نصا أن تتوافر فيه سبعة معايير مجتمعة ويزول عنه هذا الوصف إذا تخلف واحد من هذه المعايير وهي كالآتي:

1-2-الاتساق Cohésion: وقد عرّفه كارتر Carter بقوله: «يبدو لنا الاتساق ناتجا عن العلاقات الموجودة بين الأشكال النصية، أما المعطيات غير اللسانية (مقامية، تداولية) فلا تدخل إطلاقا في تحديده»⁴، إذاً الاتساق هو تماسك النص والتحامه على المستوى الشكلي عن طريق الروابط اللغوية المختلفة، « فالنص يتألف من عدد من العناصر، تقيم فيما بينها شبكة من العلاقات الداخلية التي تعمل على إيجاد نوع من الانسجام والتماسك بين تلك العناصر، وتسهم الروابط التركيبية والروابط الزمانية والروابط الإحالية في تحقيقها (...)، ويعني ذلك أن النص بنية مركبة متماسكة ذات وحدة كلية شاملة»⁵، فيقصد به الترابط الرصفي للعناصر اللغوية على سطح النص، بحيث تصبح على شكل وقائع يؤدي السابق منها إلى اللاحق بعدة وسائل تتوزع على المستوى المعجمي والنحوي والدلالي للنص⁶.

ويحصل الربط بين جمل النص ومقاطعها بجملة من الوسائل المختلفة في طبيعتها ووظائفها ومعانيها تسمى أدوات تماسك النص، نذكر منها الإحالة والتكرار والاستبدال والحذف والوصل.

2-2-الانسجام Cohérence: ترابط النص وتناسقه على مستوى الدلالة والمضمون، فإذا «كانت مظاهر الاتساق أو التماسك ترتبط بالصورة اللفظية الصورية أو البنية السطحية، التي تؤلف خطية النص على المستوى الأفقي، فإن مظاهر الانسجام ترتبط بالبنية الدلالية الكبرى للنص، أو البنية التحتية العميقة له، ممثلة في مستواه العمودي الذي يمتد من سطح النص إلى أعماقه»⁸، ليتعلق بالجانب الباطني من النص، لذا يعد «الانسجام أهم من الاتساق لأنه أعمق منه، يتطلب من المتلقي صرف الاهتمام جهة العلاقات الخفية التي تنظم النص وتولده»⁹. ويحدد براون ويول أهم المبادئ والعمليات التي يشغلها المتلقي قصد اكتشاف انسجام الخطاب من عدم انسجامه، وهي: السياق ومبدأ التأويل المحلي ومبدأ التغريض ومبدأ التشابه.

2-3-القصد Intentionnalité: هو أحد معايير النصية التي حددها دي بوجراند ودريسلر Dresslar «ويتضمن موقف منتج النص لإنتاج نص متناسق ومتماسك باعتبار منتج النص فاعلا في اللغة مؤثرا في تشكيلها وتركيبها»¹⁰ ، فلكلّ مُنتج نصّ غاية يسعى إلى بلوغها، أو نية يريد تجسيدها، «ويستمد مفهوم القصد شرعية وجوده في الدراسات اللسانية قديمها وحديثها من أنّ كل فعل كلامي يفترض فيه وجود نية للتوصيل والإبلاغ، فلا يتكلّم المتكلّم مع غيره إلا إذا كان لكلامه قصد»¹¹.

ويرى دي بوجراند أنّ القصد على المستوى النصي «يتضمن موقف منشئ النص من كونه صورة ما من صور اللغة، قَصَدَ بها أن تكون نصا يتمتع بالسبك والالتحام، وأنّ مثل هذا النص وسيلة من وسائل متابعة خطة معينة للوصول إلى غاية بعينها»¹² ، فالقصد يؤثر في بنية النص وأسلوبه، ذلك أنّ الكاتب يبني نصّه بناءً معيّنا ويختار لذلك الوسائل اللغوية الملائمة ليضمن تحقيق قصده.

أما إذا انتقلنا إلى النص الأدبي نجده يحتوي على مجموعة من المقاصد المباشرة والضمنية، « فثمة مقاصد أولية تتعلق بالمتكلم المرسل قد يكون شاعرا مثلا، فيعبر عن بعض مقاصده كالحب والخوف والاعتقاد والتمني والكراهية، وفي المقابل ثمة مقاصد ثانوية تتعلق بالمتلقي السامع الذي عليه أن يفهم مقاصد الشاعر المبدع، ويتعرف على ظروفه وحالاته النفسية والذهنية والوجدانية»¹³ . فمعيّار المقصدية يُكسِب النص حركية من بدايته إلى نهايته.

2-4-المقامية Situationalité: وترتبط بالموقف أو المقام الذي أنشئ من أجله النص، مما جعل علماء النص يؤكدون على ضرورة أخذ البعد التداولي للنص بعين الاعتبار، وذلك انطلاقا من أن لكلّ نص رسالة معينة يريد الكاتب إيصالها للمتلقي، ويتم ذلك في ظروف معينة.

فالمقام يمثل أحد المقومات الفاعلة في اتساق النص، وخاصة من الناحية الدلالية، «وعليه فإنّ نصية الخطاب لا تكتمل ولا تستقيم إلا إذا راعى صاحبه في إنجاز الظروف المحيطة التي سيظهر فيها النص»¹⁴ ، لذا فإن خطابا يبتعد كثيرا عن التقاليد الأدبية السائدة وعن الأعراف الاجتماعية المتعارف عليها لن يلقى قبولا حسنا، «فينبغي للنص أن يتصل بموقف يكون فيه، تتفاعل فيه مجموعة من المرتكزات والتوقعات والمعارف وهذه البنية الشاسعة تسمى سياق الموقف»¹⁵ .

وهكذا أصبح اللغويون ينظرون إلى المقامية كأحد أهم العناصر التي تقوم عليها النصية، وقد ترتب عن ذلك الاقتناع بأن دراسة النص لن تكون كافية بالوقوف فقط عند وصف بنيته النحوية أو الدلالية الداخلية بل لا بد من دراسته على مستوى الخطاب، وهو ما يعني الاهتمام ببنية السياق والعلاقات بينها وبين النص.

2-5-التناص Intertextualité : يعدّ التناص معياراً من المعايير التي يصير بها الملفوظ نصاً، وتعدّدت تعريفات التناص بشكل عام بين النقاد واللغويين، غير أنها كلّها تُظهر هذا التفاعل والتعلق والالتقاء والتداخل اللفظي أو المعنوي بين نصٍ ما ونصوص أخرى سبقته «فالتناص أن يمثل النص عملية استبدال من نصوص أخرى، أو ترحال للنصوص وتداخل نصّي في فضاء نص معيّن تتقاطع وتتنافى ملفوظات عديدة مقتطفة من نصوص أخرى»¹⁶.

2-6-المقبولية Acceptabilité: وتعني قبول النص من طرف المتلقي أو رفضه له، بناء على مجموعة من المعايير والقواعد النصية واللسانية، «فالمتلقي هو الذي يحكم على مدى مقبولية النص وسلامته من حيث اللغة والتركيب والدلالة والوظيفة»¹⁷، بمعنى أن المتلقي يتأكد من سلامة بناء النص من حيث الشكل والمضمون، فمن الشروط الأساسية لقبول النص توفره على معياري الاتساق والانسجام. إضافة إلى ذلك «فالنصوص السليمة والمقبولة هي التي تراعي أفق انتظار القارئ، وتستجيب لرغباته القرائية (...)، فلا بد أن يتميز النص بالترابط وتسلسل الأحداث وتشابكها بطريقة متدرجة ومنطقية وسببية، وإلا يفقد لعنصر التسلسل، مما قد يسبب غموض الإرسالية، وعدم قدرة المتلقي على فهمها واستيعابها»¹⁸، إذاً فالنص المقبول هو الذي يتسم بالاتساق والانسجام والترابط والتدرج والتسلسل، الأمر الذي يترك في المتلقي ارتياحاً نفسياً.

2-7-الإعلامية Informativité: وتتعلق بإمكانية توقع المعلومات الواردة في النص أو عدم توقعها، وعلى هذا «لا بد أن يحمل النص دلالات يريد المبدع إيصالها للمتلقي عن طريق النص اللغوي، إذ لو جاء النص فارغ المحتوى من الدلالة فليس نصاً ولا علاقة لنحو النص به، بل لابد لهذه الدلالات أيضاً من الترابط والانسجام»¹⁹، إذاً فالإعلامية ترتبط بإنتاج النص وتلقيه من طرف المرسل إليه ومدى توقعه لفحواه.

خلاصة القول بخصوص المقومات النصية بصفة عامة أنّ النص ليس تركيباً لغوياً عشوائياً، وإنما هو بناء حصيف يخضع لمعايير عديدة، منها ما يتصل بالنص ذاته كالاتساق والانسجام، ومنها ما يتصل بمنتجه ومتلقيه كالقصد والقبول، ومنها ما يتصل بالسياق كالإعلام والمقام والتناص، وإنّ مجرد الإخلال بواحد من هذه المعايير من شأنه أن يجعل هذا البناء يختل بسبب فقدانه أحد مقومات حصافته وانسجامه.

ولتداول النصوص في المجتمع، ينبغي أن تتوفر لدى المتكلمين ملكة نصية تجعلهم قادرين على فهم (إدراك) أحداث كلامية نصية وكذلك إنتاجها²⁰.

من هنا نفهم وتتأكد لدينا ضرورة توسيع دائرة الملكة اللغوية – حسب آدم جان ميشال – لتشمل كل القدرات التبليغية التي تجعل منا متعلمين فاعلين وهي بالطبع تشمل الملكة النصية العامة (التي تسمح بإدراك نصوص متسقة ومترابطة وإنتاجها كذلك) والملكة النصية الخاصة التي تسمح بإدراك مقاطع نصية على أنها سردية وصفية أو حجاجية... وإنتاج مقاطع أخرى على منوالها²¹.

إن ما ذهب إليه آدم جان ميشال يؤسس لنظرية نصية متكاملة يمكن أن تستثمر - بشكل أفضل مما هو عليه الحال - في تعليمية اللغات في بلادنا ، فإذا كان اعتماد المقاربة النصية اختيارا لسانيا فإن هذا الميدان يستقي مفاهيمه ومعطياته من حقل لسانيات النص، إلا أننا وللأسف الشديد نفتقد إلى هذه المعطيات النظرية النصية التي تجعل النص مقاربة، فيثبت بذلك تبني المقاربة النصية، ويسهل تطبيقها ويتسنى بذلك تجاوز الطرائق التقليدية في التدريس²².

3- بين البلاغة ونحو النص: في الحديث عن البلاغة ولسانيات النص، لا بدّ من الإشارة إلى التّقارب المنهجيّ بينهما في النظرة إلى النصوص بصفة عامة؛ فبينهما نقاط تلاقٍ كثيرة، وفي هذا يقول سعيد حسن بحيري: «لا يخفى أنّ المناقشتين لحدود البلاغة وعلاقتها بعلم لغة النصّ دلالة واضحة على الصّلة بينهما إلى الحدّ الذي جعل بعض الباحثين يعدّها السابقة التاريخية لعلم النص»²³ غير أنهما في الحقيقة يختلفان في المنهج والأدوات والتحليل والأهداف ، وغير ذلك من أوجه الخلاف الجلي، يقول فنديك : «إن البلاغة هي السابقة التاريخية لعلم النص إذا نحن أخذنا في الاعتبار توجهها العام، المتمثل في وصف النصوص وتحديد وظائفها المتعددة ، لكننا نؤثر مصطلح علم النص، لأن كلمة بلاغة ترتبط حاليا بأشكال أسلوبية خاصة ، كما كانت ترتبط بوظائف الاتصال العام ووسائل الإقناع»²⁴.

وهذا يوضح بجلاء العلاقة بينهما في التعامل مع النصّ الأدبي في شتّى مظهراته، وهذا ما يدفّعنا - على حسب قول فانديك - إلى القول بأنّ «البلاغة هي السابقة التاريخية لعلم النص، إذا نحن أخذنا في الاعتبار توجّهها العام، المتمثّل في وصف النصوص وتحديد وظائفها المتعدّدة»²⁵.

وينبغي أن يُشار هنا إلى أنّ كثيراً من الأفكار التي تبنتها لسانيات النصّ، والنظرات النصّية بزغت "من بحوث في البلاغة القديمة؛ إذ إنّ البحث في ممارسة الخطاب- الكلام- في البلاغة القديمة يضمّ عدداً من النظرات والقواعد الخاصّة بتنظيم نصوص محدّدة - إذ إنّّه قد استُخدمت في المباحث المتعلّقة بترتيب الكلام وزخرفته قواعد بناء محدّدة للنصوص؛ لأهداف بلاغيّة محدّدة.

وتتوجه البلاغة إلى المستمع أو القارئ لتؤثر فيه، وتلك العلاقة ذات خصوصية في البحث اللغوي النصي، إلا أن العلاقة العكسية لا تقل عنها أهمية، وهو غير متفرد في ذلك، لأن عملية الاتصال تجمع العلاقة بين أطراف الاتصال الأساسيين (نص - منتج - متلق) وكيفيات التفاعل بينها، ويمكن أن تتضح العلاقة في عدة تصورات للبلاغة التي عد علم النص وريثها الشرعي، فالبلاغة يمكن أن تصل إلى الهدف الذي يتمثل في إرشاد السامع أو القارئ إلى التعرف على المتكلم أو الكاتب بطرائق ثلاث : بشرح تعليمي موجه في المقام الأول docere، وبغرض ممتع delectare، ثم من خلال طريقة عاطفية، أي بلاغية بارعة movere²⁶.

وما تزال قواعد بناء النصّ البلاغيّة ضروريّة، ولا يمكن الاستغناء عنها في دراسة النصّ، وبخاصّة دراسة النصّ الشعري بمفهومه الواسع.

وعطفا على ما سبق؛ فإنَّ العلاقة بين البلاغة وعلم النصِّ هي علاقةٌ تفاعليَّةٌ مستمرَّةٌ؛ لأنَّ «علم النصِّ يُمكن أن يقدِّم إطاراً عامّاً للدراسة المجدِّدة لبعض الجوانب البلاغيَّة في الاتِّصال»؛ وذلك لأنَّ البلاغة التي كانت فقدت أهميَّتها "في فترات سابقة تعدُّ الآن السابق التاريخيَّ لعلم النصِّ"²⁷.

فالبلاغة فن القول أو فن الكتابة أو فن التعبير، فهي حسن استخدام ألفاظ اللغة، والقدرة على صياغة العبارة الجميلة، كما تساعد المتلقي على معرفة أسلوب النص (خبري أو إنشائي) وتعينه على فهم الفروق بينه وبين غيره من أساليب الكلام.

أما القارئ فيجب أن يتسلَّح بقدر كاف من الوسائل والأدوات التي تعينه على فهم فحوى النص المملوء بالتجارب التي تبعث في النفس انفعالات (الطمأنينة، الحب، الكراهية...)، وبالتالي معرفة الأدوات المستخدمة من طرف الكاتب التي من خلالها يسعى إلى تحقيق التواصل وإحداث التأثير المقصود.

ويرى بعض علماء اللغة أنَّ البلاغة نشأت لحماية اللغة وخدمة لها، فهي «تكشف عن ترتيب الأنظمة والتخيير بينها، وكشف المتعارضات الداخلية في النظام اللغوي»².

إنَّ البلاغة تعتبر المخزون الثقافي والموروث الفكري الهام لأي ثقافة، وتتجلَّى في النص من خلال المجاز والرمز والتراكيب والدلالة والموسيقى الصوتية. فالنص لا يقف عند عمل البلاغة القديمة التي تُقسم إلى ثلاثة أقسام (المعاني، البيان، البديع) التي هي بداية لدراسة المستوى المجازي والرمزي والموسيقى في النص، فصار الحديث عن بلاغة النص.

وتعنى بلاغة النص بالمفردات والعناصر المؤلفة لبناء النص في شكلها اللغوي داخل مكون الجملة التي تتوسع لتشمل الفقرة ثم تسع النص ككله. فعلم النص قادر على تحليل مكونات النص وبيان تألف وتضام العناصر المكونة لنظامه، وتحديد العلاقات ووظائفها والرسالة التي يحملها النص.

إنَّ ربط علم النص ببلاغة النص، جعل أهل اللغة يميِّزون بين خصائص داخل أدبية الأدب أو شعرية الشعر، فإذا كانت البلاغة القديمة، بصفتها خطابية موجَّهة إلى الجمهور، «وجمهور اليوم لم يعد كالسابق جمهور الميادين الواسعة، أي أنَّه ليس مجرد (جمهور استماع) إلى خطيب يتحدث في الساحة العامة، وإنَّما هو (جمهور القراءة) أي هذه الشريحة الاجتماعية الواسعة من القراء ذوي الثقافات المختلفة»²⁸.

فتحوَّل علماء البلاغة الحديثة من مستوى الجملة إلى مستوى النص الذي صار يفهم بعضه من بعض كنظام مرصوص، فالنص يفترض نوعاً من التلقي ويسعى إلى بناء صورة لمتلقيه، حيث ينطوي في داخله على جملة من العلامات البنائية والدلالية، التي تستدعي مشاركة خاصة من القارئ في تركيب هذا النص.

ووفق هذه العلاقة التفاعلية بين البلاغة ولسانيات النص طورت تعليمية النص البلاغي وفق مبادئ المقاربة النصية كما هو موضح في السندات البيداغوجية المتعلقة بتعليمية اللغة العربية في السنة الأولى ثانوي للشعب الأدبية، والتي لا يمكن الحكم على نتائجها إلا بالاطلاع على مدى التطبيق الميداني لهاته المقاربة وهذا ما سنقف عليه في العنصر الموالي.

4-واقع تدريس نشاط البلاغة: ربط المنهاج بشكل لافت بين البلاغة والأدب، حتى ليخيل أن سبب وجود هذا النشاط التعليمي هو الأدب في هذه المرحلة التعليمية، ذاكراً بصريح العبارة أنه «من غير المعقول أن ينظر إلى تدريس البلاغة بعزل عن النص الأدبي، وهذا المبرر العلمي الذي يجعل جدوى تقديم الدرس البلاغي تابعا لدرس النصوص الأدبية»²⁹ ، وبالتالي يكون درس البلاغة خير مساعد للمتعلم على فهم الأدب وتذوق معانيه وإدراك بعض خصائصه ولوقوف على أسرار جماله³⁰.

ضبط المنهاج برنامجا لمحتوى نشاط البلاغة من خلال علومها الثلاثة المتعارف عليها، لطلبة الجذع المشترك الأدبي، وذلك من خلال المكونات الآتية:³¹

- أ- في علم البيان:- التشبيه (أركانه، أقسامه، أغراضه).- المجاز اللغوي.- المجاز المرسل.- المجاز العقلي.- الاستعارة التصريحية والمكنية.- الكناية وأقسامها.
- ب - في علم المعاني:- الجملة الخبرية والجملة الإنشائية.- أضرب الجملة الخبرية- أنواع الجملة الإنشائية.
- ج - في علم البديع:- الجناس.- الطباق.- المقابلة.

إن أول ما يمكن إبدائه من الملاحظات على هذا المحتوى أنه جاء منفصلا عن نشاط النحو والصرف ولم يشر المنهاج إلى العلاقة التي تربطهما، خصوصا في تناولهما للنص الأدبي بالدراسة والتحليل على النحو الذي تقتضيه المقاربة النصية، وقد جاء محتوى نشاط البلاغة على النحو المتعارف عليه سابقا في عمليات التعليم، مما يطرح تساؤلا حول ما إذا كانت تلك المواضيع البلاغية هي فعلا المواضيع التي سيستدعيها تحليل النصوص الأدبية الشعرية المقررة، أو أن الأمر لا يعدو أن يكون مجرد برمجة لمواضيع جرت العادة منذ القديم على تدريسها؟ وما العمل مع الظواهر البلاغية التي ربما اقتضاها تحليل النص وتطلبها فهم معناه واكتشاف بنيته، ولم تتم برمجتها؟

إن المحتوى البلاغي الأنف الذكر، محتوى ينتمي إلى التأليف البلاغي المأثور، شأنه في ذلك شأن المحتوى النحوي والصرفي المتعارف عليه منذ أمد طويل، وكلها محتويات مؤسسة على منطق تحليلي للجملة ومكوناتها. في حين يقتضي التحول الذي حصل في مسار تطور الدراسات اللغوية واللسانية الحديثة، الانتقال إلى منطق تحليل النص ومكوناته، وهو الأمر الذي يقتضي بدوره مثلما سبقت الإشارة إليه أعلاه إعادة النظر في التأليف النحوية والبلاغية جملة، وتوفير معطيات نحوية وبلاغية نصية جديدة، تكون هي المنطلق في عملية التعليم التي تم تبنيها حاليا. وباعتبار أن قاعدة المعطيات اللسانية النصية غير متوفرة على النحو الذي

يجعل المشتغلين بعملية التعليم اللغوي يستفيدون منها بشكل مباشر، فإن مهمة هؤلاء تكون صعبة، إن لم تكن مستحيلة، للانطلاق قبل كل شيء في توفير مادة نحوية وبلاغية وعروضية وحتى نقدية حديثة، مؤسسة على منطق تعليمي، وتكون مصدرا للتأليف التعليمي بعد ذلك.

إن مضمون علوم البلاغة العربية، وكذا مضمون النحو والصرف العربيين، يحويان عددا لا بأس به من الظواهر والمعطيات التي تتصف بالبعد النصي، رغم قيامها على مبدأ التحليل الجملي، وهي -لاشك- ظواهر غير كافية لتشكيل قاعدة المعطيات المرجوة، غير أن المحتويات المبرمجة في هذا المنهاج، لم تلتفت إطلاقاً إلى تلك الظاهرة اللصيقة بالمقاربة النصية، ومن ذلك على سبيل المثال ظواهر: الضمائر وعلاقاتها الإحالية، الفصل والوصل وأدوات ذلك وعلاقاتها، العطف وأدواته الرابطة بين مكونات النص، ظواهر التوكيد والتكرار المعبرة عن مختلف العلاقات الدلالية بين الجمل وإن لم تظهر الروابط الشكلية اللفظية. هذا فضلاً عن ظواهر أخرى منها تلك المعطيات المصنفة في علم البلاغة غير أن لها بعداً نحويًا تركيبياً متميزاً تماماً مثلما هناك المعطيات النحوية التي لها بعد بلاغي، لكن جرت عادة التدريس أن يفصل بينهما، وبقي الحال على ذلك النحور رغم تبني المقاربة النصية؛ ومن تلك الظواهر على سبيل المثال لا الحصر: أسماء الإشارة والأسماء الموصولة وأنواع الضمائر، والتوكيد، التقديم والتأخير، الذكر والحذف، التعريف والتنكير، العطف وأدواته وأحكامه النحوية والتركيبية، الاستفهام والتعجب والنفي والنهي والاستدراك وما في حكم ذلك من المعاني التي لها أدواتها الخاصة بها. فتلك كلها موضوعات يمكن أن تعلم بوصفها وسائل تحليل للنص الأدبي، قبل أن تدرس من حيث مبدأ تصنيفها إلى مواضيع نحوية أو بلاغية، غير أن هذه المعطيات الأولية لا يمكن أن تشكل قاعدة المعطيات المرغوب فيها، بل إن ذلك يستدعي جهداً لسانياً وتعليمياً خاصاً، كما سلفت الإشارة إليه.

-لقد عرف المنهاج الدور التعليمي لنشاط البلاغة، على أنه: «يوضح الأحكام والمعايير التي تحكم الأثر الأدبي، وتقدم الأسس التي تبرز هذا الجمال وتلونه، وتبعا لذلك فمن غير المعقول أن ينظر إلى تدريس البلاغة بمعزل عن النص الأدبي»³²؛ فالواضح إذن أن المنهاج أخذ بعين الاعتبار دور المكون البلاغي في بناء الأثر الأدبي وتكوينه، وبناء على أن المنهاج قد اختار محتوى أدبيا يتمثل في منتخبات شعرية جاهلية وإسلامية، فإنه يصبح من الضروري أن يرتبط المكون البلاغي السابق بذلك المحتوى الأدبي في نظر المنهاج، بل يصبح جزءاً من تدريس نصوصه والوقوف على بناها الفنية والتعبيرية. لاسيما أن المنهاج انتقد الطريقة التعليمية السابقة: والطريقة الحالية تفصل درس البلاغة عن درس الأدب وتعالجها في حصص مستقلة بأسلوب يغلب عليه الطابع النظري.

لقد أنزل المنهاج نشاط البلاغة في منزلة الوسيلة التي تقدر من خلالها قيمة النص الأدبي: «إن المدرس لا يصل بالبلاغة إلى غايتها من تكوين الذوق الأدبي إلا إذا اتخذها وسيلة لبيان قيمة النصوص الأدبية وحظها من الفن»³³، بل إن منطق احتضان النص للدرس البلاغي حاضر في تصور المنهاج: «وعليه فالواجب ألا يكون

للبلاغة درس خاص تشرح فيه قواعدها وإنما يجب أن تعلم في حصص الأدب ومن خلال نصوصه ليتبين التلاميذ منزلتها الرفيعة (...) وهذا ما يوافق بيداغوجيا الإدماج قرينة المقاربة بالكفاءات»³⁴.

إن الفرضية التي يمكن أن تتجلى في هذا الموضوع من الفحص للمضمون المقرر، هو أن يستغل المحتوى التعليمي في الكتاب المدرسي تلك العلاقة الإسنادية في تدريس المادة من جهة، وفي تدريس الأدب وفقا لمطالب المقاربة النصية من جهة ثانية. رغم أن المحتوى المعروض أعلاه لا يتيح إمكانيات الاستغلال الملائمة لذلك، لاقتصاره على أنماط من التركيب المجتزأة، كنمط الجملة الاسمية ونواسخها، ولبناء المحتوى، في عمومها، على منطق عاملي نظري، لا علاقة له بالمطلب النصي المتبنى.

أما محتوى علم المعاني الذي انحصر في الجملتين الخبرية والإنشائية وأضرهما، فالظاهر أنه انحصر كذلك في التصوير الذي قام عليه في المنهاج، خلاف ما عليه أمره في عرف العلماء الذين أولوه مكانة رفيعة قرنته بعلم النحو وأداء المعاني اللغوية فيقولون: «إن علم المعاني يعلمون كيف نركب الجملة العربية لنصيب بها الغرض المعنوي الذي نريد، على اختلاف الظروف والأحوال»³⁵، ولا يجب أن يغيب عن الذهن، أنه من أهم مشمولات علم المعاني، في عرف أهل البلاغة، الخبر والإنشاء بجميع مكوناته من مثل النداء والاستفهام والتمني والأمر والنهي، وكذلك من مشمولاته الذكر والحذف وأحوال المسند والمسند إليه في ذلك، وكذا التقديم والتأخير فيهما، والتعريف والتكبير والتقييد بالمفاعيل وبالتوابع وبالشرط وبضمير الفصل، وكذلك القصر والفصل والوصل والإيجاز والإطناب والمساواة³⁶. وكل تلك الموضوعات لها تعلق مباشر بدراسة النص وتحليله والكشف عن أسرار بنيته ودور كل ذلك في أداء المعنى فيه، بل إنها الطريق إلى فهم النص وقراءته، لأنها تشكل آلة ذلك ووسيلته.

ومحسنات البديع في عمومها إنما كانت لأداء المعاني والأغراض وتبليغ المقاصد حتى وإن ظهرت في عمومها متعلقة بوصف المفردات لا التراكيب، غير أنها على مستوى الدراسة النصية، تتعلق أساسًا بالبنية المعنوية العامة للنص (MACROSTRUCTURE DU TEXTE) القائمة على الرابط المعنوي المؤسس لمبدأي الاتساق والانسجام في النص كله وأداء الوظيفة الإخبارية من خلال تطور موضوعه، ومن الطبيعي أن تلك البنية العامة تتأسس بدورها على كل من علوم البلاغة وعلم النحو.

خاتمة: إن نظرة أولية لواقع تدريس البلاغة تريك اعتماد الطابع التقليدي في المادة الدراسية، وجنوحها إلى الطابع النظري المتعارف عليه. فإعادة توصيف النظام اللغوي العربي من منطق النص بات أمراً ضرورياً لتجاوز الإرباك الحاصل على مستوى الوصف الجملي، الذي لم يعد قادراً على استيعاب الظاهرة النصية التي تطورت في ظل «تطور البحث في نظام الخطاب الأدبي حيث ظهرت الحاجة إلى تطوير جهاز موضوعه النص»³⁷، فاعتماد المقاربة النصية في تدريس البلاغة يفرض على المتعلمين أن يكتسبوا كفاءة نصية للتعامل مع النصوص الأدبية، لأن المتعلم/القارئ «لم يعد مجرد مستهلك للنص بل أصبح منتجا له ومشاركا فيه بصورة أو بأخرى»³⁸.

هوامش البحث:

- ¹ - مشروع الوثيقة المرافق لمنهاج السنة الأولى من التعليم الثانوي العام والتكنولوجي، جذع مشترك آداب، جذع مشترك علوم وتكنولوجيا جانفي 2005، ص: 15.
- ² - عبد اللطيف الفارابي وآخرون : معجم علوم التربية مصطلحات البيداغوجيا والديداكتيك ، دط ، مطبعة النجاح الجديدة ، المغرب، 1994 ، ص 26 .
- ³ - غيلوس صالح : بناء كفاءة الإنتاج الكتابي للمتعلم في ضوء المقاربة النصية ، دراسة وصفية ، السنة الرابعة من التعليم الابتدائي ، نموذجا " ، (رسالة الماجستير ، المدرسة العليا للأساتذة في الآداب والعلوم الإنسانية ، بوزريعة ، الجزائر ، 2007-2008) ص 78 .
- ⁴ - نعمان بوقرة، المصطلحات الأساسية في لسانيات النص وتحليل الخطاب دراسة معجمية، جدارا للكتاب العالمي، ط1، عمان الأردن، 2009، ص81.
- ⁵ - محمد الأخضر صبيحي، مدخل إلى علم النص ومجالات تطبيقه، منشورات الاختلاف، ط1، بيروت 2008، ص86.
- ⁶ - روبرت دي بو جراند، النص والخطاب والإجراء، ترجمة تمام حسان، عالم الكتب، ط 1، القاهرة 1998، ص103، (بتصرف).
- ⁷ - الانسجام أحد المصطلحات التي عرفت تباين آراء الدارسين بشأنه، وذلك من خلال إيجاد مقابل عربي له، بحيث كان لكل دارس مصطلح معين مقابل المصطلح الأجنبي Coherence، فاختار محمد خطابي مصطلح الانسجام، واختار تمام حسان مصطلح الالتحام، بينما اختار محمد مفتاح مصطلح التشاكل، في حين استعمل الباحثان سعد مصلوح ومحمد العبد مصطلح الحبك.
- ⁸ - يحي بعبطيش، نحو نظرية وظيفية في النحو العربي، أطروحة دكتوراه دولة، جامعة منتوري قسنطينة، الجزائر 2006، ص454.
- ⁹ - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
- ¹⁰ - نعمان بوقرة، المصطلحات الأساسية في لسانيات النص وتحليل الخطاب دراسة معجمية، ص128.
- ¹¹ - محمد الأخضر صبيحي، مدخل إلى علم النص ومجالات تطبيقه، ص96.
- ¹² - المرجع نفسه، ص97.
- ¹³ - جميل حمداوي، محاضرات في لسانيات النص، مكتبة المثقف، ط1، 2015، ص107.
- ¹⁴ - محمد الأخضر صبيحي، مدخل إلى علم النص ومجالات تطبيقه، ص98.
- ¹⁵ - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
- ¹⁶ - أحمد عفيفي، نحو النص اتجاه جديد في الدرس النحوي، مكتبة زهراء الشرق، ط1، القاهرة 2001، ص81.
- ¹⁷ - جميل حمداوي، محاضرات في لسانيات النص، ص161.
- ¹⁸ - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
- ¹⁹ - أحمد عفيفي، نحو النص اتجاه جديد في الدرس النحوي، ص86.
- ²⁰ - خولة طالب الإبراهيمي: مبادئ في اللسانيات، ط2، دار القصة للنشر، الجزائر 2006، ص 169
- ²¹ - المرجع نفسه: ص 169 .
- ²² - أحمد عفيفي: نحو النص ، نحو النص اتجاه جديد في الدرس النحوي، ص 68.
- ²³ - سعيد حسن بحيري : علم لغة النص المفاهيم والاتجاهات، ط1، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، 1997، ص 5 .

- ²⁴ - المرجع نفسه، ص5.
- ²⁵ - المرجع نفسه، ص6.
- ²⁶ - سعيد حسن بحيري : علم لغة النص المفاهيم والاتجاهات ، ص 07 .
- ²⁷ - حامد أبو حامد: الخطاب والقارئ ، ط2، مركز الحضارة العربية، القاهرة 2002، ص 141.
- ² - رضوان ظاظا: مدخل إلى مناهج النقد الأدبي، دط، مراجعة المنصف الشنوفي، سلسلة عالم المعرفة، 1997، ص 184.
- ²⁸ - غيلوس صالح ، بناء كفاءة الإنتاج الكتابي للمتعلم في ضوء المقاربة النصية السنة الرابعة من التعليم الابتدائي نموذجاً ، مذكرة ماجستير، ص89-90.
- ²⁹ - مناهج اللغة العربية السنة الأولى من التعليم الثانوي العام و التكنولوجي، جذع مشترك علوم وتكنولوجيا، وجذع مشترك آداب، الديوان الوطني للمطبوعات المدرسية، مارس 2005، ص28.
- ³⁰ - ينظر: المرجع نفسه، ص:28.
- ³¹ - المرجع السابق، ص: 27.
- ³² - المنهاج، ص: 27.
- ³³ - المرجع السابق، ص: 28.
- ³⁴ - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
- ³⁵ - بكري شيخ أمين، البلاغة العربية في ثوبها الجديد، علم المعاني الجزء الأول، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الأولى، 1979، ص:51.
- ³⁶ - ينظر في أغلب مراجع البلاغة.
- 37- الأزهري الزناد، نسيج النص، بحث فيما يكون به الملفوظ نصاً، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 1993، ص:14.
- 38- نعمان بوقرة، الخطاب الأدبي ورهانات التأويل قراءة نصية تداولية حجاجية، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، ط1، الأردن، 2012، ص61.